Majallah Al-Qism Al-Arabi
University of the Punjab,
Lahore - Pakistan.
No.27, Issue: 2020

مجلة القسم العربي
جامعة بنجاب، لاهور– باكستان.
العدد السابع والعشرون، 2020م.

مكوّنات خطاب أدب الرحلات وخصائصه

عبدالجبار
باحث الدكتوراه، قسم اللغة العربية بجامعة بنجاب، لاهور
أ.د. حامد أشرف همداني
الأستاذ، قسم اللغة العربية، جامعة بنجاب، لاهور

Abstract

The text of travel literature has variety of disciplines including History, Geography, Religion, Literature, Ethnography, Anthropology, Sociology etc. this diversity has created controversy among scholars to identify the genre of this type of literary work, most of them related it to literature, and its types, because its relation to it is more obvious, than others.

This research is meant to identify the components of the discourse/text of travelogue in Arabic literature, and its characteristics, because it has direct relation to define its genre.

مفهوم الخطاب لغةً واصطلاحاً:

تدل الحروف الجذرية لكلمة:" خطب "على المحاورة والكلام بين اثنين، يقول ابن الفارس:

"خَطَبَ (الْخَاءُ وَالطَّاءُ وَالْبَاءُ أَصْلَانِ: أَحَدُهُمَا الْكَلَامُ بَيْنَ اثْنَيْنِ، يُقَالُ خَاطِبُهُ يُخَاطِبُهُ خِطَابًا، وَالْخُطْبَةُ مِنْ ذَلِكَ. وَفِي النِّكَاحِ الطَّلَبُ أَنْ يُزَوَّجَ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: "وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُمْ بِهِ مِنْ خِطْبَةِ النِّسَاءِ"(البقرة: 235) وَالْخُطْبَةُ :الْكَلَامُ الْمَخْطُوبُ بِهِ. وَيُقَالُ اخْتَطَبَ الْقَوْمُ فُلَانًا، إِذَا دَعَوْهُ إِلَى تَزَوُّجِ صَاحِبَتِهِمْ .وَالْخَطْبُ :الْأَمْرُ يَقَعُ ; وَإِنَّمَا سُمِّيَ بِذَلِكَ لِمَا يَقَعُ فِيهِ مِنَ التَّخَاطُبِ وَالْمُرَاجَعَة."[1]

والخِطاب :مراجعة الكلام[2]. وفي لسان العرب:" خطب :الخَطْبُ: الشَّأْنُ أَو الأَمْرُ، صَغُر أَو عَظُم؛ وَقِيلَ :هُوَ سَبَبُ الأَمْر .يُقَالُ :مَا خَطْبُك؟ أَي مَا أَمرُكَ؟ وَتَقُولُ: هَذَا خَطْبٌ جليلٌ، وخَطْبٌ يَسير. والخَطْبُ: الأَمر الَّذِي تَقَع فِيهِ المخاطَبة، والشأْنُ والحالُ؛ وَمِنْهُ قَوْلُهُمْ :جَلَّ الخَطْبُ أَي عَظُم الأَمرُ والشأْن. وَفِي حَدِيثِ عُمَرَ: وَقَدْ أَفْطَروا فِي يومٍ غيمٍ مِنْ رَمَضَانَ، فَقَالَ: الخَطْبُ يَسيرٌ.

وَفِي التَّنْزِيلِ الْعَزِيزِ :"قالَ فَما خَطْبُكُمْ أَيُّهَا الْمُرْسَلُونَ؟" وَجَمْعُهُ خُطُوبٌ...

خَطَبَ فلانٌ إِلَى فلانٍ فَخَطَّبَه وأَخْطَبَه أَي أَجابَه. والخِطابُ والمخاطَبَة :مُراجَعَة الكَلامِ، وَقَدْ خاطَبَه بالكَلامِ مُخاطَبَةً وخِطاباً، وهُما يَتخاطَبانِ."[3]

أما الخطاب في اللغة الإنجليزية، فيقابله كلمة:"Discourse" والتي تعنى: "عملية الفهم تمر بنا من المقدمة حتى النتيجة اللاحقة، والاتصال عبر الكلام أو المحادثة، القدرة على المناقشة، أن يتحدث ويناقش مسألة ما، الاتصال المألوف، المحادثة، أن يقوم بخطاب تعني: أن يتحدث ويناقش مسألة ما".[4]

نظراً إلى الدلالات اللغوية لكلمة خطاب يمكننا القول بأنها تكاد تدور حول معنى توجيه الكلام نحو الغير لإيصال المطلوب من المعاني والرسائل إليه،

وهو على العموم: وحدة تواصلية إبلاغية، متعددة المعاني، ناتجة عن مخاطب معين، وموجهة إلى مخاطب معين عبر سياق معين. وهو يفترض وجود سامع يتلقاه مرتبط بلحظة إنتاجه، لا يتجاوز سامعه إلى غيره، والخطاب يتنوّع بتنوّع الطرق التي يتخذها المتكلمون، وذلك بحسب مواقف اجتماعية وثقافية محددة، فنتج بذلك أنواع كثيرة من الخطابات، مثل الخطاب الديني، والخطاب العلمي، والخطاب السياسي، والخطاب الأدبي وغيرها.[5]

المفهوم الاصطلاحي:

لقد تعدّدت مفاهيم الخطاب نظراً إلى تعدّد الحقول المعرفية المتفاوتة التي تعاملت هذه الكلمة من علم أصول الفقه، وعلوم اللسان، وعلم النفس، وعلم الاجتماع، وعلم الأناسة، وفلسفة اللغة، والنقد الأدبي وغيرها من المجالات المعرفية،فأكسبه كل مجال مفهوماً خاصاً يناسبه، يشير الدكتور جوبي تشند نارنج (Gopi Chand Narang) إلى مفهوم الخطاب، والتنوّع المعرفي له بقوله: "هو ذلك التعبير المبرهن القائم على بعض الفرضيات والتصورات المشتركة بين المخاطب والسامع التي تمنحه مدلولاته المعينة ولذلك يختلف الخطاب الأدبي عن الخطاب التشريعي ؛ لأن افتراضات أحدهما تختلف عن افتراضات الآخر."[6]

وإن كان الخطاب يحتاج إلى اللغة لتحقيق غاياته ومراميه إلا أنه في حقيقته ليس لغوياً بل هو مجموعة من النوايا التي تتحقق بوسيلة اللغة، فكل نوع من أنواع الخطاب يتخذ أسلوبا ملائماً من أساليب اللغة لتحقيق غرضه، ويتميز بخصائص لغوية تناسب طبيعته.

أما المفهوم اللساني الحديث للخطاب في النقد الأدبي – وهو يهمّ الباحث في هذا البحث لارتباطه بأدبية الرحلة – فهو حديث النشأة ارتبط ظهوره باللسانيات التي ركزت في دراستها على الجملة، فالخطاب عند هاريس — رائد تحليل الخطاب–:" ملفوظ طويل، أو هو متتالية من الجمل تكوّن مجموعة منغلقة،

يمكن من خلالها معاينة بنية سلسلة من العناصر بواسطة المنهجية التوزيعية، وبشكل يجعلنا نظل في محال لساني محض".[7]

والمنهجية التوزيعية هي أن يقوم الدارس بتقطيع النص إلى عناصر تركيبية مجتمعة في طبقة من الطبقات متعادلة تتكون مثل هذه الطبقة من مجموع العناصر التي تستطيع أن تظهر في سياق متطابق أو متشابه؛ وبناءً على هذا التعريف يؤكد هاريس على أن الهدف من تحليل الخطاب ليس البحث عن معنى النص، وإنما هو ضبط طريقة انتظام العناصر اللغوية التي تشكل هذا النص. فالخطاب كما قال مُحَمَّد عكاشة: هو" كل إنتاج ذهني منطوق أو مكتوب يقوله فرد أو جماعة رسمية اعتبارية، وقد يأتي هذا الخطاب في شكل محادثة عادية مشافهة أو حوار رسمي أو مقال مكتوب أو رسالة أو خطبة أو وثيقة أو تصريح أو تعليق، وغير ذلك من الأحاديث الموجهة في التواصل الجمعي أو الزوجي (بين اثنين)."[8]

نظام الخطاب:

وللخطاب نظام خاص، يترجمه منهج منتجه، ويسعى محللو اللغة إلى كشف هذا النظام لإيضاح رسالته وبيان أساليبها اللغوية. وحاول علماء الخطاب في وصف العلاقات الداخلية والخارجية للأبنية النصية بمستوياتها المختلفة، وشرح الظواهر العديدة لأشكال التواصل واستخدام اللغة. فالعملية التواصلية لابد أن يتحقق فيها وجود العناصر التالية:

المرسل: هو المتكلم أو الكاتب الذي ينتج الخطاب

المتلقي: هو المستمع أو القارئ الذي يتلقى الخطاب

الموضوع: وهو مضمون الخطاب الذي يريد المرسل إيصاله للمتلقي والهدف منه

القناة: هو وسيلة وصول الخطاب

المقام: هو زمان ومكان الخطاب ومراعاة حال المتلقي.

ولكل أسلوب من أساليب الخطاب سياقات تؤدي وظائف محددة تساعد على تأويل الخطاب وفك رموزه، فتقدم لمحلل الخطاب مفتاح تبويب النصوص ليحلل رسائلها.[9]

أما الرحلة فيدور معناها اللغوي حول الحركة والانتقال من مكان إلى مكان آخر، يقول ابن فارس: (رَحَلَ) الراء والحاء واللام أصل واحد يدل على مضي في سفر، يقال: رَحَلَ يَرْحَلُ رحلة ... والرحلة الارتحال ... رحّله، إذا أظعنه".[10]

إذن الحركة والسفر والانتقال هو المعنى اللغوي للرحلة، وتأتي الرحلة بمعني تقييد أحوال السفر أيضاً، وإن كانت الحركة والتنقّل من مقتضيات الحياة وطبيعة البشر إلا أنه ليس كل من ارتحل قد دوّن رحلته، ولكن المعنى الأول ينبني عليه المعنى الثاني، فلزم أن نفرق بين الرحلة بكونها فعلاً يتجسد في الانتقال من مكان إلى مكان آخر والعودة منه، وبين كونها خطاباً مقيداً في نص متشعب الأبعاد، والرحلة بمعنى الثاني تهّم الباحثين، وهذا ما يسميه الدكتور سعيد يقطين خطاب الرحلة ويعرّفه بأنه: عملية تلفيظ لفعل الرحلة ويرى أن خطاب الرحلة يتماهى (يتوحّد) مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية.[11]

والرحلة بالمفهوم الاصطلاحي: "خطاب تنشئه ذات مركزية، هي ذات الرّحالة، تحكي فيه أحداث سفر عاشته، وتصف الأماكن المزورة، والأشخاص الذين لقيتهم وما جرى معهم من حديث وغايتها من هذا الحكي إفادة القارئ وإمتاعه".[12]

وبما أن الخطاب هو طريقة تقديم مادة حكائية في الرحلة فقد أنشأ أدب الرحلات خطاباً خاصاً يميزها من غيرها من الفنون النثرية الأخرى، ويحتوي على مستويين: المضموني، والشكلي، وينضم من حيث المحتوى المضموني معارف متفرقة مثل: التأريخية، وجغرافية، ودينية، واجتماعية، وأدبية، ولغوية...، ومن حيث الشكل هو خطاب سردي، ووصفي وحكائي ...، ولهذا التنوع في

المضامين والأشكال شبّه الدكتور مُحَمَّد حاتمي خطاب الرحلة بفناء بيت تنفتح فيه أبواب حجرات متعددة.[13]

ولا شك أن أهمية الرحلات العلمية تكمن لما تحويه الرحلة من المعارف والحقائق التي تفيد المشتغلين بحقول معرفية عديدة ومتنوعة إلا أن الخطط التي يسير عليها النقد الأدبي في التعامل مع الرحلة يختلف عن هؤلاء كلهم، فالنقد عندما ينظر إلى الأدب لايقف عند حدود المعنى والمضمون، وإنما كيفية قول المعنى الذي يجعل منه أدباً، ومن هنا فما يشغل بال النقد الأدبي –قبل استكشاف المعرفة التي تقدمها الرحلة– هو أدبية الرحلة. فالرحلة تضّم بُعدين مهمّين: الأول هو الحدث المادي للرحلة بوصفها تنقل وارتحال في الفضاء والأمكنة، والبعد الثاني: الصياغة اللغوية للرحلة، أي الخطاب بوصفه كتابةً عن ذلك الحدث الذي صار في الماضي، فالأدبية لا تشغل نفسها بالبُعد الأول، وإنما يهّمها طريقة صياغة الخطاب.[14]

وخطاب الرحلة شكل تعبيري يمثل جنساً أدبياً، ويحمل ملامح شكلية عديدة، وهو في الحقيقة تمثيل سردي لحكاية واقعية يرويها شخص بضمير المتكلم أو الغائب، وهذا يدل على تواجد الأسس العامة للسرد الذي هو:" التمثيل لحدثين أو موقفين حقيقين أو متخيلين في ترتيب زمني، وكل منهما لا يفترض الآخر ولا يستلزمه".[15]

وهذا يستدعي أن يعّرف السرد لكون الرحلة تنتمي إليها، فهو: "نقل الفعل القابل للحكي من الغياب إلى الحضور، وجعله قابلاً للتداول سواء كان هذا الفعل واقعياً أم تخيلياً، وسواء تم التداول شفاهاً أو كتابةً".[16]

ويعني ذلك أن السرديات تركّز أساساً على بنية المحكي المتشكلة من عناصر الزمن، والمكان، والشخصية، والحدث، والمنظور (وجهة نظر الراوي) وبناءً على هذا يمكن أن يقال إن خطاب الرحلة جنس أدبي سردي لاشتماله على عناصر السرد، وله قدرة هائلة على بيان الأحداث زمنياً. فالرحلة من منظور

السرديات: صيغة لغوية لها سماتها الأسلوبية التي تميزها عن غيرها من الأشكال التعبيرية، وأن المضامين ما هي إلا نتيجة لهذه الصيغة، فهي حكاية يسردها راوٍ معّين بصيغة وأسلوب معيّنين، وزمن معين، وأشخاص، وأحداث، وأمكنة متنوعة. وكما هو الحال في أي خطاب سردي يتوزع الخطاب الرحلي على صيغة السرد وصيغة الوصف، إذ تمتزج الفقرات السردية التي يتم فيها حكي الأحداث والمغامرات المختلفة مع الفقرات الوصفية التي تقدم الأماكن والمناظر الطبيعية والناس والأشياء. واليوم يجمع النقاد الغربيون والعرب على أن صيغة الوصف تسود في الخطاب السردي الرحلي، وأن صيغة السرد فيه تظل في خدمة الوصف، على عكس ما نجده في الخطاب السردي الروائي. ولهذا تتسع في الخطاب الرحلي المساحة الخاصة بالصيغة الوصفية.[17] وأكد ذلك سعيد يقطين في دراسته: ‘‘خطاب الرحلة العربي ومكوناته البنيوية، في كتابه: السرد العربي: اتجاهاته وتجلياته": حين قال: إن السرد في الرواية يؤطر الوصف ويستوعبه، لذلك يغدو البعد الزماني فيها يحتل مكانة أساسية بقياسه بالمكان. أما الرحلة، فيمكن الذهاب الآن إلى أنها خطاب وصفي، لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معيّن. إن السرد فعل زماني يتحقق في الزمان، والوصف فعل مكاني وهو توقيف لزمان السرد لمعانقة ثبات المكان، فهما صيغتان من صيغ الخطاب السردي، وبينهما تفاعل وجدل، ويتناوبان في مجرى الحكي؛ ولذلك لا عجب أن نجد الصيغتين معاً في الخطاب تقدمان من خلال ذات واحدة هي ذات الراوي، فالراوي يرصد تطور الزمن بوساطة السرد، ويضعه في مكانه الذي يجري فيه بتحوله إلى الوصف.

ويمكننا بحسب هيمنة إحدى الصيغتين وطبيعة كل منهما في الخطاب السردي أن نحدد نوعية الخطاب، أما الرحلة، فيمكن الذهاب الآن، إلى أنها خطاب وصفي لأنها تضع في الاعتبار الأول البعد المكاني في زمن معين.[18]

إن السردي يهمه الخطاب وليست مادة الخطاب، وبهذا التمييز يختلف عمله عن غيره من الباحثين الذين اعتنوا بالرحلة باعتبارها مادة ولم يتوجهوا إلى خطابها، فانشغلوا بعمل الرّحالة ولم ينتبهوا إلى نوعية الخطاب الذي ينتجه.

فالراوي في الرحلة يكون الرّحالة على الأغلب، وهو المنجز لخطاب الرحلة فيكون بمنزلة المرسل ينتج ملفوظاته وفق قواعد خاصة ورغبات محدودة تتعين في علاقتها بالمرسل إليه، ويخاطب نفسه قبل أن يخاطب غيره، ويصف موصوفه بدرجة تماثل تأثيره في نفسه، فيشاهد ويعاين ويصور في خطاب ذي خصائص مضمونية فنية، وقوالب تعبيرية بنائية تعّد معايير تحكم خطاب أدب الرحلات، ويُظهر هذا الخطاب أطراً لغوية محددة، تتميز بشقيها: التركيبي والدلالي، في تعبيرية لها نسقها الخاص. وهذا النسق هو مبتغى علماء الخطاب، وعلى الرغم من أن مفاهيم الخطاب ومصطلحاته قد تعددت عندهم، فإنهم لم يختلفوا في أن يبحث في نظام نسقي معين يكشف عن بنية خاصة للنص.[19]

بناء خطاب أدب الرحلات:

وإذا أردنا تحليل خطاب أدب الرحلات لنصل بذلك إلى العناصر التركيبية والمكونات التشكيلة لهذا الخطاب وجدنا أنه تدور حول ثلاثة أطراف، فالرحلة بوصفها خطاباً سردياً حكياً يستلزم وجود ثلاثة أطراف: الحاكي، والمحكي، والمحكي عنه، كما هو الحال في السرديات التي تتشكل فيها البنية السردية للخطاب من تضافر ثلاثة مكونات هي: الراوي، والمروي، والمروي له.

1- فالحاكي أو الراوي في الرحلة هو المؤلف نفسه، وهو الذات المركزية التي تقوم بفعل الرحلة، وتقوم بتلفيظ تلك الرحلة. وهذه الذات، في انتقالها عبر الأماكن المزورة، لا تنفصل عن ثقافتها، ومعتقداتها، ورؤيتها للعالم، ولهذا نجد الذات حاضرة باستمرار يمر من خلالها الحكي (الحكاية)، فيصطبغ بأحاسيسها، وميولاتها، وعواطفها، ومرجعيتها الثقافية، وهكذا فعندما يرحل الرّحالة، لا يرحل بجسده فقط، بل بعقله وفكره وقلبه ووجدانه أيضا.

الراوي في الرحلة هو المؤلف ذاته، وهذه إحدى خصائص الكتابة الرحلية، وهذا الراوي يكون حاكيا وموضوعا للحكي، فهو يكون حاكياً عندما يصف، ويكون موضوعاً للحكي عندما يسرد، وبهذا يقدم الراوي معرفة موضوعية أثناء الوصف، كما يقدم تجربةً ذاتيةً أثناء السرد[20]

2- المحكي عنه، وهو السفر الذي أنجزه الرّحالة فعليا، وحديث الرحلة عن السفر جعلها "تنتمي إلى "أدب السفر"، ولكنها تختلف عن بعض أنماطه التي وظفت السفر بشكل أو بآخر.

هكذا يصبح السفر بنية مهيمنة من جهة، وهي -من جهة ثانية- بنية متحكمة وجاذبة لباقي البُنى إلى الحد الذي تخضع فيه هذه الأخيرة لبنية السفر[21]، وبهذه الهيمنة التي تتمتع بها بنية السفر داخل الكتابة الرحلية يُصبح السفر هو الناظم لمختلف مكونات الرحلة الأخرى من سرد ووصف وأخبار وحكايات وأشعار ومعارف متنوعة، بيد أنه ينبغي الانتباه والتفريق بين السفر عندما يكون بنية مهيمنة وناظمة، وبين السفر عندما يكون بنيةً، ومكوناً كباقي المكونات، في الحالة الأولى نكون أمام جنس الرحلة، وفي الحالة الثانية نكون أمام أجناس أخرى، قد تكون تاريخا أو سيرة ذاتية أو رواية أو غيرها. وهكذا أصبحت هيمنة بنية السفر "معياراً نقدياً يتّم فيه التمييز بين الرحلة، وباقي نصوص السفر، وبين الرحلة والحركة، وبين الرحلة والدليل السياحي".[22]

إن هيمنة مكون السفر لا يعني أن الرحلة تخلو من باقي المكونات الأخرى، بل تعني أن السفر هو العنصر المؤطر لكل العناصر والمكونات الأخرى، ومن النادر جدا وجود رحلة اقتصر فيها مؤلفها على هذا المكون فقط.

بعد إلقاء الضوء على طرفي عملية الحكي في حكاية الرحلة، وهما الذات الحاكية، وموضوع الحكي، ننتقل إلى صميم هذه العملية وقلبها، وهو الخطاب المحكي، وستتم الإشارة في الحديث عن هذا الخطاب إلى بنائه، ثم مكوناته.

3- المحكي أو الحكاية، وهو خطاب الرحلة. ومن المعلوم أن لكل خطاب طريقته الخاصة في البناء، بها يتميز عن غيره من الخطابات. وبما أن خطاب الرحلة موضوعه هو السفر الذي قام به الرّحالة، فإن "خطاب الرّحالة يتماهى (يتوحّد) مع الرحلة وعوالمها، ويسعى إلى مواكبتها من البداية إلى النهاية. فهو يبتدئ بتحديد أسباب الرحلة ودوافعها، وزمن الخروج ومكانه. وكلما انتقل الرّحالة في المكان واكب الخطاب هذه التحولات، وصولا إلى النهاية (نهاية الرحلة)، والرجوع إلى نقطة الانطلاق وبهذه المواكبة يكون خطاب الرحلة هو عملية تلفيظ لفعل الرحلة. وبعملية التلفيظ هاته يختلف خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات المجاورة التي تقوم على أساس فعل الرحلة، ولكنها تستثمر جوانب منها، وتوظفها في خطاب مختلف.[23]

هكذا تكون طريقة بناء الخطاب وسيلة لتمييز خطاب الرحلة عن غيره من الخطابات، وبواسطته أيضا يمكن إخراج مؤلفات تصنّف ضمن دائرة الرحلة من هذه الدائرة. إن طريقة بناء الخطاب الخاصة هي ما يسميه الأستاذ عبد الرحيم مودن "نمطية التأليف" التي بها يتم بها إدخال كتابة ضمن جنس معين، أو إقصاؤه منها، يقول: "ولعل شرعية انتساب الرحلة إلى الجنس المستقل ببنائه وخصائصه يعود إلى هذه النمطية في التأليف".[24]

بعد هذه الإشارة إلى بناء الخطاب في الكتابة الرحلية، يُشار إلى مكونات هذا الخطاب التي يمكن حصرها في:

1- المعرفة: تزخر الرحلات بالعديد من المعارف المتنوعة، منها ما هو ديني، وما هو تاريخي، وما هو جغرافي، وما هو أدبي، وما هو اجتماعي... وغير ذلك، مما يجعل هذه الرحلة قبلة للعديد من الباحثين المختلفي المشارب؛ من أجل متح المعارف التي تهمهم.

والرّحالة، وهو يقدم هذه المعارف، إنما يسعى إلى إفادة القارئ بما يظنه مفيدا له. وهذه المعرفة التي يقدمها الرّحالة تخضع لشخصيته وتكوينه الثقافي.

وهكذا نجد الرّحالة المؤرخ يولي اهتماما أكبر للمعرفة التاريخية، والمتصوف يعتني كثيرا بالمعرفة الصوفية، وهكذا دواليك.

وتقديم المعارف في الرحلات ليس مستغربا، لأننا نجد كثيرا من الرحالين ينصون في مقدمات رحلاتهم على أن مقصديتهم هي إفادة القارئ بكثير من المعارف والإفادات.

2- السرد: لا تنفك الكتابة الرحلية عن السرد، ولا يمكن أن تستغني عنه مادامت تنقل إلى المتلقي أحداثاً، وأفعالاً قامت بها الذات الكاتبة، وهذه الأحداث والأفعال هي الانتقال من نقطة الانطلاق ثم العودة إليها.

والسرد يبدأ مع بدء الرحلة، ويستمر إلى نهايتها، وهذه المسيرة السردية تتكون من مقاطع سردية دائمة الحضور في كل الرحلات، ومقاطع سردية تحضر في بعض الرحلات وتغيب في أخرى، والمسيرة السردية في الرحلات تتخللها محطات يتوقف فيها السرد ليفسح المجال لمكونات أخرى بالاشتغال، وهكذا يوقف الراوي السرد ليقدم وصفاً أو ليقدم معلومات ومعارف، أو ليسوق شعرا. وبعد الانتهاء من هذا يعود السرد إلى جريانه.

3- الوصف: السرد والوصف نمطان خطابيان يتناوبان على طول الخطاب الرحلي، بل الوصف من أهم مقومات الفعل السردي، والأعمال السردية هي مراوحة بين السرد، والوصف، والحوار، إلا أن السرد والوصف يطغيان على الحوار، ولذلك يعتبر الوصف مقوماً أساسياً في أدب الرحلات؛ حيث يطغى هذا الأسلوب على غيره من الأساليب.[25] فالراوي يسرد حين يتحدث عن المتحرك، ويصف حين يتحدث عن الساكن، وبعبارة أخرى: يتم السرد بالحديث عن الفعل في الزمان، ويتم الوصف بالحديث عن المكان أو الأشياء أو الأشخاص.

والوصف يتطلب انتباهاً، ودقة ملاحظة من الواصف؛ لكي يستوعب أكثر معاني الموصوف، بصورة حية يراها القارئ أمام عينيه مجسّداً، والموصوف الذي يلفت نظر الرّحالة هو الأشياء الغريبة وغير المألوفة لديه، وتبعاً لهذا

ستختلف الموصوفات في الرحلات حسب الأوساط التي عاش فيها الرّحالة وما ألف مشاهدته فيها، لأن المألوف معروف لا يحتاج الرّحالة إلى إعادة التعريف به.

4- الحوار: الحوار هو أحد مقومات خطاب الرحلة لكونه مرتبطاً بتقنيات السرد، وهو يساند الوصف الذي يتحكم حركة السرد من حيث السرعة والإبطاء، ويشتمل الخطاب الرحلي على الحوار ؛لأن الرّحالة يقطع المسافات، ويمر بالأماكن، ويقابل الأشخاص، وهذا يستدعي ضرورة التخاطب بينه وبين أناس يلقاهم، وتتفاوت الحوارات في الخطابات الرحلية حسب الخطة السردية التي يتخذها الرّحالة فقد يكون الحوار سطحياً في رحلة ما لعدم اهتمام الرّحالة بمشاعر الأشخاص وانفعالاتهم، وقد يأتي الحوار حياً نابضاً في رحلة ؛لأن الرّحالة يوظف الحوار ضمن حركة السرد.[26]

5- التخييل: الرحلة تمثل خطاباً سردياً له أهداف، ودوافع، وأحداث، وأشخاص، وفضاءات، وأمكنة، واقعية. وهو نص حقيقي تنبني علاقته بالمرجع على قاعدة التطابق لا على الاحتمال، أما السرديات التخييلية فإن علاقة خطاباتها بالمرجع تقوم على أساس التخييل، إلا أن التخييل صياغة تعبيرية تجعل خطاباً ما خطاباً أدبياً؛ لأن الأدب ليس تعبيراً اعتباطياً،بل هو طريقة مخصوصة في التعبير، فالشكل التعبيري هو الذي يميز بين الأدب وبين اللا أدب، ولذلك التخييل في الخطاب الرحلي لا ينافي مصداقية الرحلة ؛لأنه أسلوب تعبيري تابع لأعراف الجماعة في تحديد ما هو الواقعي والتخييلي، وكذلك خطاب الرحلة أساسه اللغة واللغة في حقيقتها تخييل ولذلك الفرق بين تخييل السرديات التخييلية والتخييل الرحلي فرق في الدرجة وليس في النوع.[27]

6- الشعر: نجد كثيرا من الرحلات تمتلئ بالكثير من الأشعار المختلفة المضامين، والمتفاوتة في القيمة الفنية، وهذه الأشعار إمّا من إبداع الرّحالة أو من إبداع غيره من الماضين أو المعاصرين الذين ينشدهم وينشدونه. والرّحالة وهو يحلي رحلته بالشعر إنما يفعل ذلك تحت تأثير المكانة العالية التي يحتلها الشعر في

الثقافة العربية. وكأنّ الرّحالة وهو يورد هذه الأشعار، بين الفينة والأخرى، يسعى إلى إمتاع القارئ بهذا الخطاب الشعري الجميل، وإلى رفع قيمة رحلته باحتوائها عدداً وافراً من الأشعار التي توظّف في سياقات مختلفة.

هذه هي مكونات الخطاب الرحلي التي تتناوب على امتداده، وتحتل مساحات غير متساوية فيه.

خصائص الكتابة الرحلية

تتميز الكتابة الرحلية بعديد من الخصائص تميزها عن الأجناس النثرية الأخرى، وهذه الخصائص هي:

– هيمنة بنية السفر التي تؤطر الأحداث وتَنْظمها مما سبقت الإشارة إليه.

– الذاتية: تحضر ذات الرّحالة في رحلته حضوراً بارزاً، وليس هذا بمستغرب مادامت الرحلة حكياً لسفر قامت به هذه الذات. وهكذا تحتل الذات المركز في الحل والترحال، وتصطبغ الرحلة بألوانها الناصعة والداكنة.

– الحكي بضمير المتكلم مفرداً أو جمعاً: وهذا تجل من تجليات الذات في أسلوب الكتابة.

– الواقعية: الرّحالة – الراوي رجل واقعي عاش في فترة زمنية معروفة، والأشخاص الذين يتحدث عنهم، هم أيضاً واقعيون عاشوا في زمن معروف، ومكان معروف فالأماكن التي يصفها أماكن حقيقة لها وجود فعلي على الأرض. وبهذه الخصيصة تتميز الرحلة عن الرواية، والمقامة المبنيتين على الخيال.

– دورة الخطاب بالرجوع إلى نقطة الانطلاق: فالخطاب يبدأ مع انطلاق الرّحالة من موطنه، ويسير معه إلى المكان المقصود، ويعود معه إلى نقطة الانطلاق، وهكذا يدور الخطاب مع السفر، وينتهي من حيث بدأ.

– تعدّد المضامين وتداخل الخطابات: يشتمل الخطاب الرحلي على معارف متنوعة: دينية، وتاريخية، وجغرافية، واثنوجرافية، وأدبية... وتتداخل فيه خطابات

مختلفة مثل: الشعر والرسالة والحكاية والوصف والسرد... وهذا ما يجعله جنس الأجناس، أو محصلة الأجناس.[28]

الحواشي والهوامش

1. أحمد بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، أبو الحسين: معجم مقاييس اللغة، المحقق: عبد السلام مُحَمَّد هارون، دمشق: دار الفكر، 1399هـ - 1979م ج:2، ص:198

2. أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد بن عمرو بن تميم الفراهيدي البصري: كتاب العين، المحقق: د مهدي المخزومي، د إبراهيم السامرائي بيروت: دار مكتبة الهلال ج:4، ص:222

3. مُحَمَّد بن مكرم بن على، أبو الفضل، جمال الدين ابن منظور الأنصاري: لسان العرب، بيروت: دار صادر، الطبعة: الثالثة، 1414 هـ ج:1، ص: 360،361

4.William Little and others: The shorter Oxford English Dictionary on Historical principles, Oxford: clarendon press, third edition ,v:1 p:551

5. نعمان بوقرة(الدكتور): أساسيات الخطاب، بيروت: دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى،2012م، ص: 20

6. جوبي تشند نارنج(الدكتور): ساختيات، پس ساختيات اور مشرقى شعريات (البنيوية، وما بعد البنيوية والشعريات الشرقية)، نئى دهلى: *قومى كونسل برائے فروغ اردو زبان*، الطبعة الثالثة، 2004م، ص:3

7. سعيد يقطين(الدكتور): تحليل الخطاب الروائي (الزمن، السرد، التبئير)، بيروت: المركز الثقافي العربي للنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة 1997م،ص:17

8. مُحَمَّد عكاشة: خطاب السلطة الإعلامي نحو تجديد لغة الخطاب، القاهرة: الأكاديمية الحديثة للكتاب الجامعي، ط1، 2005 ص:45

9. نهلة عبد العزيز مبارك الشقران(الدكتورة) خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، عمان: الآن ناشرون وموزعون، الطبعة الأول ى2015م، ص:31

10. أبو الحسن أحمد بن فارس بن زكريا: معجم مقاييس اللغة، تحقيق وضبط عبد السلام مُحَمَّد هارون سوريا: دار الفكر، 1979م.ج2 ص 497(مادة رحل)

11. سعيد يقطين: السرد الأدبي، مفاهيم وتجليات بيروت: الدار العربية للعلوم، الطبعة الأولي، ص: 177

12. مُحَمَّد حاتمي(الدكتور): في الخطاب الرحلي، المغرب: مجلة فكرونقد، عدد: 87 السنة التاسعة، مارس 2007 م ص: 10 https://www.aljabriabed.net/n87_05hatimi.htm ص:11

13. في الخطاب الرحلي، ص:4

14. عبد العليم، مُحَمَّد إسماعيل(الدكتور): تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، (ضمن جائزة الطيب صالح للإبداع الكتابي، الدورة الثامنة) السودان: زين للاتصالات، 2018، ص:7،8

15. جيرالد برنس: علم السرد (الشكل والوظيفة في السرد) ترجمة: د. باسم صالح، بيروت: دار الكتب العلمية، ط:1، ص:10

16. السرد الأدبي، ص:61

17. مسعود عمشوش (الدكتور): المقاربات السردية لأدب الرحلة في النقد العربي، 3 نوفمبر 2018م http://www.mahaarat.com/?p=1592

18. السرد العربي، ص:171

19. نهلة عبد العزيز الشقران(الدكتورة): خطاب أدب الرحلات في القرن الرابع الهجري، عمان: الآن ناشرون وموزعون، الطبعة الأولى:2015م، ص: 31

20. السرد العربي، ص:176

21. عبد الرحيم مودن (الدكتور): أدبية الرحلة، الدار البيضاء: دار الثقافة، الطبعة الأولى 1996ة، ص:26،35

22. السابق، ص:21

23. السرد العربي، ص: 170،171

24. عبد الرحيم مودن(الدكتور): الرحلة المغربية في القرن التاسع عشر: مستويات السرد، عمان: الأهلية للنشر والتوزيع،2006م، ص:23

25. تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ص:20

26. تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ص:26

27. تقنيات السرد أساس أدبية الرحلة، ص:30

28. في الخطاب الرحلي: 5،9

*_*_*